الباباوات على المنحى الذي سبق و أرساه القديس (امبروز) ، للإمبراطور سلطة على المملكة الدنيوية بما فيها المملوكة للكنيسة ، إذا شاء القيصر ذلك ، وكان ذلك يعني أن السلطة الزمنية تسمو على السلطة الدينية ، ولعل ذلك يرجع إلى رغبة المسيحيين أول عهد المسيحية في استرضاء الحاكم[١]

ولكن بعد اعتناق القيصر المسيحية ، بدت الكنيسة تخشى سلطته الزمنية لتشمل الدينية كما كان متعارفا عليه قبل المسيحية ، هناك انقسمت الكنيسة إلى قسمين : القسم الأول : يذهب رجالها إلى أن الكنيسة جزء من الدولة وليس الدولة جزءاً من الكنيسة ، إي خضوع الكنيسة يكون للدولة ، والقسم الثاني : يرى أن مسائل الدين تخص القساوسة والقيصر جزء من الكنيسة ، ولا يعدوا أن يكون ابنا من أبناء الكنيسة ، شأنه في ذلك شأن سائر المسيحيين[٢]

وقد خاضت الكنيسة تناقضات داخلية أيضا ، وذلك لان أفكارها ذات أصول متباينة ، واطر اجتماعية مختلفة مما أدى إلى خلافات عقائدية كما هي الحال مع المذهب الذي رفضته الكنيسة (اريوس)[٣]

**المرحلة الثانية:** وهي المدة التي قويت بها سلطة الكنيسة وسلطة البابوية وهذا يشمل **ثلاث مستويات:**

**المستوى الأول:** المستوى الديني وهو ما تمثله القوة الدينية المرتبطة بالإسرار المقدسة برمتها.

---

(١) بدوي، ثروت، أصول الفكر السياسي والمذاهب السياسية الكبرى، ص ١٠٦

(٢) سباين ،جورج ،تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ص ٢٦

(٣) آريوس(٢٥٦ - ٣٣٦ م) موجد مذهب الآريوسية في الديانة المسيحية الذي يقول بانّ الكلمة ليس بإله، بل بما أنه "مولود" من الله الآب فهولا يُشاركه طبيعتهِ، بل تقوم بينهما علاقة "تبنّي ، ينظر: علم اللاهوت المقارن، الهرطقات، بقلم الأنبا غريغوريوس ، ص٦٢

**المستوى الثاني**: التشريعي (القانوني)، أصبحت الكنيسة مصدرا للقانون ومسؤولة عن تشريعه.

**المستوى الثالث** : التعليمي ، وذلك عندما أصبحت هي الراعية الأولى لتلك المدارس الدينية وبالتالي المحركة لها ، وما تخرجه من رجال دين يهتمون بالفكر والأدب ولابد أن يكونوا مرتبطين بالكنيسة بوصفها السلطة الزمنية ، فهي تراقب مدى التزام السلطة الزمنية (الدولة) بالقانون ، لان الكنيسة هي التي تجسد الإرادة الإلهية[١]

وقد أثرت الكنيسة في الحياة الغربية في كل شيء حتى في الجوانب الفنية ، إذ اتسم الفن المسيحي بالنزوع إلى الروحية والتجريد ، وإيثاره للإشكال المسطحة التي هي أشبه بضلال لا جسم لها ، ولم تكترث بالحياة العضوية المادية بما فيها من لحم ودم ، إذ أصبحت الفكرة أهم بالتدرج من الكل الخارجي[٢]

إن المكانة العليا التي اجتلتها الكنيسة في جميع بقاع أوربا أدى بالسلطات السياسية إلى الخضوع للتعليمات الكنسية بما تمثله من قوة القمع والإرهاب ، كما أن الاعتقاد الذي ضل سائدا طول العصور الوسطى ، وحتى بداية القرن السادس عشر ، هو أن الكنيسة مؤسسة مقدسة لها وحدها الحق في فرض معايير الدين والأخلاق ، بل والتنظيم الاجتماعي والسياسي، وكان يتربع على رأس هذا الجهاز (البابا) ، الذي يخضع له الملوك وتعد أوامر وتوجيهات البابا مقدسة وتوصف بالعظمة[٣]

---

(١) بدوي ، ثروت ، أصول الفكر السياسي والمذاهب السياسية الكبرى، ص ٢٧٥

(٢) هاوزن ، ارنولد ، الفن والمجتمع عبر التاريخ ، ص ١٤٧

(٣) عبد مصطفى، عبد الجبار، الفكر السياسي الوسيط و الحديث، ص ٣٥

## سادسا: الفلسفة المسيحية (المشكلة والخصائص)

التعبير الذي يرد بشكل طبيعي في ذهن الباحث في العصر الوسيط هو تعبير "الفلسفة المسيحية" لكنه يثير إشكالات كثيرة ويمكن صياغة هذه المشكلة بالسؤال الاتي: هل يمكن ان نقول ان لعبارة "الفلسفة المسيحية" اي معنى حقيقي؟ وهل هناك واقعية تقابلها في التاريخ؟ ولابد ان يكون واضحاً أننا لا نتساءل هل هناك مسيحيون فلاسفة ،اعني مسيحيين تصادف ان كانوا فلاسفة ؟ولكن التساؤل هو عما اذا كان هناك فلاسفة مسيحيون؟ اي انه هل يمكن الجمع بين الفلسفة والدين في رجل واحد...؟[١]

وبذلك نصل الى اجابة عما اذا كانت توجد فلسفة مسيحية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة هب الفلسفة التي شاعت في اوروبا ابان العصر الوسيط، فنشير في هذا الصدد الى ان هناك اتجاهين بصدد هذه المسألة، ينكر الاتجاه الاول وجود فلسفة مسيحية ،والثاني يقرر وجود فلسفة مسيحية حقيقية[٢]

الاتجاه الاول: المنكرون للفلسفة المسيحية باعتبار انها تمثل الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، وان العصور الوسطى لم يكن لها فلسفة قط، وكل ما هنالك شذرات متفرقة من الفكر اليوناني تتصالح تصالحاً مؤقتاً مع اللاهوت بطريقة فيها الكثير من التصنع والافعال، وهؤلاء انقسموا الى ثلاثة فرق:

١-المؤرخون الذين ذهبوا الى ان جل ما خلفه مفكروا المسيحية هو مجرد استعارات افلاطونية او أرسطية، او يقوموا بالجمع بين النقيضين في مركب واحد، ويضيف المؤرخون انه من العسير ان يوجد في المسيحية ما يمكن وصفه بالفكر المبدع الخلاق والنتيجة هي ان الديانة المسيحية لم تسهم قط في التراث الفلسفي للبشرية[٣]

---

(١) جيلسون، الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط،ص٢٧-٢٨

(٢) تركي ،ابراهيم محمد: مدخل الى الفلسفة المسيحية ،ص٤٥

(٣) سجري، فلسفة العصور الوسطى ،ص٤-٥

٢-العقليون يؤكدون ان الدين والفلسفة يختلفان اختلافاً تاماً من حيث الجوهر، بحيث يصبح كل تعاون بينهما غير ممكن على الاطلاق وهؤلاء الفلاسفة يختلفون فيما بينهم اختلافاً واسعاً حول الجوهر الذي يشكل ماهية الدين لكنهم جميعاً متفقون على تأكيد عدم انتمائه الى ميدان العقل وعلى ان العقل من جانبه مستقل استقلالاً تاماً عن الدين[١]فهم ينتهون الى نتيجة ان الدين يقوم على ما هو غير عقلي وان الفلسفة تقوم على ما هو عقلي لذا يمكن ان تأمن المخاطر التي تعود على الفلسفة نفسها وذلك اذا اشتغلت الفلسفة بالدين ،اذاً مستحيل الجمع بين العقلي و اللاعقلي، اذ ان لكل منهما ميدانه الخاص وموضوعاته الخاصة بل ليس ثمة صلة بين الميدانين[٢]

٣-المدرسيون المحدثون يعد هذا الفريق من اهم الفرق الرافضة لتعبير الفلسفة المدرسية، اذ انه يمثل رجال الدين المسيحي انفسهم ،وهم يؤكدون على كون الفلسفة تقوم على العقل الخالص ويرون ان فلسفة توما الاكويني اكبر دليل على هذا، اذ انها دشنت على العقل او انطلقت منه، وبهذا المعنى اذاً فهمنا من الفلسفة المسيحية انها فكر يؤسس على الدين وكذلك على العقل حينئذ يستحيل القول ان ثمة فلسفة مسيحية ولكن يتم الاكتفاء بلقب مسيحي.

اما الاتجاه الاخر المؤيد للفلسفة المسيحية، اذا كان الموقف السابق الرافض لوجود فلسفة مسيحية ،انه اذ كان الموقف السابق لوجود فلسفة مسيحية قد قوبل بالرفض والنقد من قبل المؤرخين المسيحيين بصفة خاصة، فهنا نجد اتجاه مقابله يتبناه العديد من المفكرين والمؤرخين المسيحيين ويحاولون الدفاع عنه حيث يحاولون اثبات وجود فلسفة مسيحية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، واذ كان هذا المقام لا يتسع لعرض مختلف وجهات النظر التي تتدرج تحت هذا الاتجاه المؤيد لوجود فلسفه مسيحية. فأننا سنكتفي بالإشارة الى احد هذه المواقف[٣] يتلخص هذا

---

(١) بدوي، عبد الرحمن :فلسفة العصور الوسطى،ص١

(٢) سجري، فلسفة العصور الوسطى،ص٦-٧

(٣) الانبا غريغوريوس: في الدراسات الفلسفية،ص١٢-١٥.

الموقف بان الفلسفة هي محبة الحكمة فإذا كانت الفلسفة محبة للحكمة فهل يعقل ان تناهضها المسيحية؟ ان الدين المسيحي يطري الحكمة ويغبط الحكماء، ويلح علينا ان نسأل الحكمة ونجد في اثرها[١] وعلى ذلك فان الفلسفة الحقيقة هي المسيحية فهي اذاً موجودة وهي الدين المسيحي[٢] اما خصائص الفلسفة المسيحية يمكن اجمالها كالاتي:

١-ان العقل ضروري لاكتمال الايمان فلا يكفي مجرد الايمان بل الايمان تعقل ما امنت به من قبل، اي انها تكمل العقل عن طريق الايمان او تكمل الايمان عن طريق العقل[٣] فهي تحاول الى جانب ايمانها بالمعتقدات ان تعبر تعبيراً حقيقاً عن هذه المعتقدات وهذا ما يجب ان يفهم من العبارة المشهورة" أؤمن لأتعقل[٤] فالفلسفة المسيحية في مجملها فلسفة تبدأ من الايمان وتنتهي اليه فلا يمكن لها العمل بمنأى عن الدين او عن الوحي، فهي تبدأ منه وتنتهي اليه فيندر ان تجد فيلسوفاً مسيحياً يعتمد على العقل الخالص في فلسفته، حتى الاكويني الذي صنفه البعض بانه فيلسوف عقلي ،بدأ من الايمان وانتهى اليه ،وليس ادل على ذلك من كون محاولته للتوفيق في حقيقتها فلسفة تلفيق اذ حاول تأويل الفلسفة لكي تتؤاءم مع المسيحية ،اي لصالح العقيدة[٥]

٢-ارتكزت العصور الوسطى على دعامتين اساسيتين هما "الدين والحرب" فالحرب اوحت به منذ البداية "الديانة المسيحية" التي اصبحت فيما بعد الدين الرسمي للدولة في اوروبا والاساس الاول للحياة والفكر خلال قرون عديدة ،كما ان هذا العصر هو عصر تسلط الكنيسة الرومانية اللاتينية على الشعب وعلى ارادته وعلى حياته الخاصة والعامة واعتبار كل من يخرج على أوامرها مهرطقاً "اي ضد الدين" فيوقع عليه اشد العقاب، اما الحرب فلا يمكن فصل هذه الفكرة من اي حركة من حركات العالم الوسيط فهي تتعلق اساساً بالجرمان وغزواتهم وبالفروسية والاقطاع

---

(١) تركي، ابراهيم محمد: مدخل الى الفلسفة المسيحية،ص٥١
(٢) بدوي، عبد الرحمن: فلسفة العصور الوسطى،ص٣
(٣) تركي: مدخل الى الفلسفة المسيحية،٧٢.
(٤) محمد، ماهر عبد القادر، عطيتو، حربي عباس: دراسات في فلسفة العصور الوسطى،ص٣٠٣.
(٥) سجري، فلسفة العصور الوسطى،ص١٧

الذي يتصل بدوره بالأرض اتصالاً مباشراً وعلى اساسه انقسم المجتمع الغربي الوسيط افقياً الى مختلف فئاته وطبقاته وطوائفه[١]

٣-انها فلسفة تقدر العقل وتعلي من شأنه وتفسح المجال لطرق باب العقيدة ،ولكنها في ذات الوقت حجمت دور العقل ووضعت له حدوداً حتى لايقحم نفسه في امور ليست من شأنه فينجم عن ذلك تداعيات لا يحمد عقباها ،فنحن هنا نتحدث عن عقل ينشد الايمان ويدور في فلكه[٢]

٤- فضلاً عن ذلك ان العصور الوسطى لم تكن خالية تماماً من التجديد والابداع في كثير من الفنون والانظمة مثال ذلك نهضة القرن الثاني عشر ونشأت الجامعات وهناك ايضاً الفن القوطي الذي لازالت اثاره باقية الى اليوم في كثير من الكنائس والحصون والقلاع والاماكن العامة في معظم مدن اوروبا وذلك الفن الذي يعتبر ن اروع ما ابتدعه العقل الوسيط[٣]

٥-ارتبطت العصور الوسطى بالدين المسيحي ارتباطاً كلياً بمعنى ان النظر العقلي في الدين المسيحي يصبطبغ بالصبغة المسيحية، فالفلسفة المسيحية تميزت بأنها دينية تناولت مختلف المشكلات الفلسفية من زاوية لاهوتية بحتة حيث جاءت بفكرة الخلاص وتناولت الله وصفاته والانسان من حيث روحه وصلته بالله ، وذلك خلاف من يرى ان مشكلات الفلسفة المسيحية محدودة فهي كغيرها من الفلسفات الاخرى ناقشت العديد من المسائل الفلسفية محاولة وضع حلول لها، وتميزت هذه المعالجات بطابع ديني مسيحي مما جعل لها تفردها، لذا لا يجب الجزم بأن الفلسفة المسيحية فلسفة محدودة المشاكل، وجل ما تناقشه هو امور وثيقة الصلة بالعقيدة فقط.

---

(١) بدوي، عبد الرحمن: فلسفة العصور الوسطة،ص٥

(٢) سجري، فلسفة العصور الوسطى،ص٢١.

(٣) رستم، اسد: تاريخ الكنيسة المكتبة البوليسية، ط٢ ،١٩٩٠ ،ص٤٤

## القديس أوغسطين

فلسفة العصور الوسطى تبدأ على وجه التدقيق فى القرن التاسع وتنتهى تقريباً فى القرن الرابع عشر . أما الفترة التى جاءت منذ بدء المسيحية حتى القرن التاسع فتسمى بفترة « الآباء » Age Patristique لأن التفكير فى هذه الفترة كان مقتصراً على آباء الكنيسة ، الذين حاولوا أن يدافعوا عن الدين المسيحى ضد الغارات العنيفة التى شنها الفلاسفة اليونانيون المعاصرون ، أى الأفلاطونيون المحدثون ، وكان بينهم من آمن بالفلسفة اليونانية وبخاصة الأفلاطونية المحدثة ، إلى جانب إيمانه بالمسيحية ، أو من آمن بالمسيحية من أجل إيمانه بالأفلاطونية المحدثة ، أو على العكس . ومن أشهر هؤلاء يوستينوس وكليمان الاسكندرى وبازليوس وأوريجيانس وترتليانوس .

ولما كنا لانريد أن ندرس إلا العصور الوسطى ، فلن نتحدث عن هؤلاء ولا عن هذا العصر بأكمله . وسنكتفى بدراسة شخصية كبيرة قوية ، لما كان لها من الأثر العظيم فى الفلسفة المسيحية ، ألا وهى القديس أوغسطين .

ليس القديس « أوغسطين » إذن من فلاسفة العصور الوسطى بل هو فيلسوف من فلاسفة عصر الآباء . ولد بمدينة « طاغشت » Tagaste فى شمال أفريقية فى نوفمبر سنة ٣٥٤ . ودرس فى مدرسة هذه المدينة أولا ، وانتقل منها إلى المدارس الأخرى المشهورة فى نوميديا ، وخاصة مدرسة قرطاجنة . ولقد كان أوغسطين مرهف الإحساس ، قوى العاطفة ، كثير التأثر ، جامعاً إلى جانب هذا بين ورع قوى ورغبة شديدة مُلحة فى انتهاب اللذات والأخذ بأكبر نصيب من الحياة . ولهذا كانت نفسه ميدانا لصراع كبير بين قطبين متنافرين ؛ ولم يستطع إلا فى النهاية أن يوفق بين القطبين ، بأن قضى على أحدهما .

والثقافات التى يمثلها متباينة متغايرة . فهناك أولا ثقافة مسيحية ظاهرة

فى النصوص الدينية ، ثم ثقافة يونانية . وقد أوغسطين فى كليتهما . وكانت هناك ثالثاً ثقافة فارسية سورية ، وهى الثقافة المانوية التى آمن بها القديس « أوغسطين » فترة طويلة من الزمان . وهناك رابعاً وأخيراً الثقافة اللاتينية التى ظهرت لديه مزاجاً فردياً ونظرة سياسية . وقد حاول الجمع بين هذه الثقافات كلها فى نفسه .

أما الثقافة المسيحية فقد عرفها أولا فى سن متقدمه عن طريق القديس أمبروزيوس Ambroise وقد ظهرت له المسيحية أولا بوصفها مذهباً فى الخطيئة ، والحب ، واللطف . وظهرت له ثانياً فى شكل فكرة كلية ، هى فكرة الكنيسة الأبدية التى ابتدأت بآدم وستنتهى بملكوت الله . وظهرت له ثالثاً بحسبانها تصاعداً للإنسان الروحى homospiritualis من حيث أن المسيحية تضع قيما متصاعدة فى الحياة الإنسانية وتنتهى بالقيمة العليا ـ قيمة الإنسان فى ملكوت الله ـ .

وأما الثقافة اليونانية فقد ظهرت له على شكل حكمة ، وعلى شكل تعقل . وقد أخذ القديس أوغسطين بهذا الجانب إلى حد كبير ؛ خصوصاً إذا لاحظنا أنه لعب دوراً كبيراً فى تفكيره وفى إيمانه .

وأما الثقافة السورية الشرقية ، فقد ظهرت له فى صورة المانوية ، وهذا المذهب قد استهوى أوغسطين منذ البدء ، فحاول أن يثبت كل شىء عن طريق العقل فحسب ، وحاول أن يأخذ عنه بعض الأفكار مثل فكرة الشر ، وفكرة نشأة العالم

وظهرت له الحضارة الرومانية من حيث هى فكرة الامبراطورية . وقد تأثر أيضاً بهذه الثقافة اللاتينية لأنه كان ينشد ما يسمونه باسم السلم الرومانى .

بدأ أوغسطين حياة الطلب فى قرطاجنة وابتدأ دراسة الفلسفة سنة ٣٧٣ بقراءة

كتاب تششرون اسمه Hortensius ؛ فكان هذا الكتاب أول دافع له على التفكير ؛ وأول موقظ للروح الفلسفية عنده .

وحينئذ بدأ يسائل نفسه : ما الحقيقة ؟ وما السبيل إليها ؟ أى ما هو المنهج الذى يجب أن نسير عليه لكى نكتشفها ؟ ومن ناحية أخرى شغلته مشكلة الشر وأصله فى الوجود . حينئذ قام الفيلسوف يبحث فى المسائل الفلسفية دون التمسك بواحد منها ، وبدأ بالكتب المقدسة فلم يجد فيها الكفاية ، فانصرف إلى المانوية لأنه رأى أن هذا الدين يتحدث عن الحقيقة ويجعل الغاية من الوجود اكتشاف الحقيقة .

ومن ناحية أخرى بدا له هذا المذهب عقلياً ، لأنه يدعو إلى الحقيقة عن طريق العقل ، بصرف النظر عن كل سلطة كتابية أو دينية . ثم هذا المذهب قد أرضى النزعة الحسية عند « أوغسطين » فقد كان حِسِّياً ماديا ، وقد أراد أن يبرر هذه النزعة ؛ فوجد أن المانوية تؤمن بالمادة وتقول بأن فى الوجود أصلين : النور ، والظلمة . وأن كلا الأصلين حقيقى ؛ وأن من طبيعة الوجود أن توجد الظلمة إلى جانب النور . فالشر عنصرٌ أساسىٌّ فى طبيعة الحياة الإنسانية . لهذا وجد أوغسطين ما يبرر النزعة إلى الشر — وهى موجودة عنده — بمعنى الانصراف إلى اللذات الحسية . أما من الناحية الخارجية فبعد أن أتم عهد الطلب ، بدأ فأقام مدرسة للخطابة فى قرطاجنة . كان أستاذاً فى هذه المدرسة ، وعنى بدراسة العلوم الرياضية ، خصوصاً الحساب والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، وهى التى أوصى بها الفيثاغوريون .

هذه العلوم الرياضية قد وجهت فكر القديس أوغسطين توجيهاً جديداً ، وذلك أنه رأى فى العلوم الرياضية وضوحاً لم يجده من قبل فى أى علم عُنِى بدراسته . فوجد أن علم الفلك العلمى يقدم حقائق يقينية مختلفة كل الاختلاف

عن الحقائق التى تقدمها المانوية . ومن هنا شك فى المانوية ، فأصبحت الحالة التى يعانيها هى حالة الشك المطلق . كذلك قال إن فلسفة الأكاديمية هى الحقيقية ، وليس على الإنسان إلا أن يشك .

وبهذا انتهى عهد الطلب ، وابتدأ عهد التنقل والرحلات . فرحل من وطنه فى إفريقية إلى روما سنة ٣٨٣ وفتح هناك مدرسة للخطابة أيضاً ، ولم يستمر طويلا فى روما ؛ بل غادرها إلى ميلانو بعد سنة ؛ وافتتح هنـــاك مدرسة للخطابة أيضاً .

قلنا إن روح الشك كانت روح « أوغسطين » حين مغادرة وطنه إلى روما ؛ ولكن هذا الشك لم يكن يتفق مع طبيعته من حيث إنها طبيعة إيجابية ، تنشد الحقيقة بأى ثمن . ولذلك عزم على أن يخرج من الشك ، خصوصاً وأنه قد رأى علوماً يقينية ، من شأنها أن تقدم له المنهج الذى يجب أن يسير عليه . لقد كان فى هـذه الفترة يقول إن المعارف الحسية لا يمكن أن تؤدى إلى معرفة الحقيقة ، وذلك راجع إلى الحجج التى أدلى بهـا الشكاك وعلى رأسهم أجريبا Agrippa ضد معطيات الحس وضد التذكر إلى آخره[1] .

فحينما أراد أن ينشد الحقيقة كان عليه أن يلجأ إلى مصـدر غير الحس ، وهو الوجدان Intuition أى المعرفة الصادرة عن الروح مباشرة . وحينئذ كان يعمل فيه عاملان من أجل إحـداث التطور : أولها المسيحية . ولم يكن اشتغال أوغسطين بالمسيحية جديداً ؛ بل تعـلم مبادئها من قبل على يد أمه ، واستمر فى دراستها ثم غادرها إلى المانوية ، ولـكنه عاد إليها من جديد وبتأثير خطب القديس أمبروزيوس . نقول إنه بدأ يؤمن بالمسيحية ؛ وحقائق الدين التى كان يرفضها من قبل — بدأ يؤمن بأن كثيراً منها يمـكن أن يتفق مع العقل ، وأن هذه الحقائق جديرة بأن يؤمن بها ولو لم يستطع العقل إثباتها .

(١) راجع كتابنا : « خريف الفـكر اليونانى » .